عشقت صيادا

نهاد رزق

تركت قلمها أخيرا، ظلت تكتب لســـاعات لم تشـــعر بالوقت يمر، وحدها الكتابة تملأ حياتها، لم يخذلها قلمها أبدا ولا الأوراق فهما كفيلان أن ينقلاها عبر عوالم أخرى أكثر بهجة، تصـــبح أكثر جرأة، تتحدث لغة لم تتعلمها، تســـبح في فضـــاء لا نهائي من أحاســـيس ومشـــاعر لا تعرفها إلا معهم، ومجرد أن تتركهم تنزل لأرض واقعها منتشية كعائد من رحلة ممتعة.

أعدت فنجان قهوتها وتزينت؛ فلديها موعد غير اعتيادي تنتظره كل مســـاء تحيا لأجله، يمدها بالأمل أعطى للوقت قيمة الســـاعات والدقائق، الآن تتسارع أنفاسهم كلما اقترب الموعد.

تدق الثامنة الآن لم تعد تقوى على الانتظار، تمتد يدها لتحتضـــن هاتفها بحب تدخل صـــفحة المجموعة التي أضـــافتها فيه إحدى صديقاتها بعد إلحاح:

_أنا مندهشـــة! مما تخافين؟ ألن تتخلي عن خوفك وخجلك أبدا؟ فلتجربي، شاهدي في البداية حتى تعتادي الأجواء وتندمجي فيها.

_أعدكِ أن أحاول، معكِ كل الحق، فلن أخسر ـــ شـــيئا بالعكس سأستعين به على وحدتي.

لم يكن مجموعة هادفة، كان يضـــم أناســـا تختلف اتجاهاتهم وثقافاتهم، لم تجد نفســـها بينهم لم تجد أحدا يشـــبهها وقررت الخروج منه، لكن منشـــورا يحمل تســـاؤلا لفت نظرها، تابعت المناقشـــات والتعليقات، كان مختلفا وثريا اســـتغرقت فيه، دفعها فضولها للبحث عن صاحب المنشور، فتحت صفحته الخاصة في المجموعة، قضت ليلتها تتابع ما قام بنشره سابقا، ثم عادت لتنضم

للمناقشـــة وجدت نفســـها تعلق له وتنتظر رده؛ وأتاها مقنعا مثيرا للدهشة من فرط اتزانه وتعقله، تراجعت عن قرارها فجأة بل نسيته تماما أصـــبح هو وجهتها، تقرأ له وتعلق، وتنتظر الرد، وكأنه الوحيد هنا، تتزين كل ليلة وتســـتعد للقائه تنتظر بلهفة تطالع هاتفها بين الحين والآخر، وتســترجع ما دار بينهما من حوار، تجد في ذلك متعة لا تعرف سببها.

إنها العاشرة الآن، اعتادت أن تجده في هذا الموعد، ها هو يأتي، انتفض قلبها فجأة بمجرد أن لمحت صورته واسمه، وبحواسها كلها راحت تقرأ ما كتب، تحاول قراءته هو، قراءة أفكاره وإحســاســه، في كل مرة كانت تندهش للروح التي تتلبســها حين ترد عليه وتناقشــه، من أين أتتها تلك المرونة والخفة، تلك اللغة الغضـــة الندية، كلما التقيا تعانقت أفكارهما واتحدت، فلا تنتهي إلا وقد نالت من النشوة والسـعادة ما يجعلها تقضي اللـيل وقد حلقت روحها، تتوق لصـباح يحمله إليها فقد أهداها صباحات ومساءات لم تتوقعها يوما.

هذا المسـاء بالذات جاء مختلفا؛ تأكدت ظنونها، لقد كان يكتب لها كل ليلة؛ يقصـدها بكل كلمة، يقترح، ويسـأل، ويناقش، وينتظر ردها يترك الجميع، ويخلو بها، ويمتد بينهما الكلام يهديها أشعاره وتهديه، يقرأها، يبحر فيها، يضـعها أمام نفســها فتعود تكتشــفها من جديد؛ صادقت مرآتها مجددا بعد أن هجرتها لسنوات.

ها هي كلماته أخذت تقرأها مرات ومرات:

- هل هناك شخصا تتوقع أن يراسلك قريبا، ويجعلك ذلك تتحسس صندوق رسائلك من وقت لآخر؟؟

امتدت أصابعها لتتلمس الحروف وتكتب ردا:

_لغة مختلفة هذه المرة، من صـــاحب الدعوة المســـتمرة للتمرد، والإقدام واقتناص الحياة.

_ ربما هي نوع من الإقدام ربما هي نوع من إفشـــاء الأسرار، ربما هو الجبن أو التردد، الاحتمالات كثر لكن النتيجة واحدة أن من ينتظر الرسائل يتحسس صندوق بريده.

عند هذا الحد انتهى حديثهما، وكالعادة راحت تعيد قراءته، وانتبهت فجأة... ماذا لو كان يقصـــدها؟ كانت تتحدث بعفوية لكن إحساسها قادها فجأة أنه ربما فهم أنها تقصده، ماذا يعني بقوله إن من ينتظر الرسائل يتحسس صندوق بريده"؟! واستبد بها الفضول، دفعها دفعا لتتفقد بريدها.. اتســـعت عيناها؛ انتابتها رجفة؛ ها هي رســـالة منه.. اتضـح الأمر الآن؛ هنا تبدل كل شيء؛ اختلفت نظرتها له وأخذت اتجاها جديدا لم تكن تتوقعه.

صار هو شغلها الشاغل، فتح لها نافذة تطل منها على الحياة تحمل لها نســـيما عليلا وزخات مطر، لا يبدأ يومها إلا به تصـــحو لتلتقيه، وتنتظر المساء بلهفة ليجمعها به، أعاد لها سحر طفولتها ومرحها، تنبت في روحها أزهارا ورياحين مع كل قصيدة ينشرها.

_أنت الوحيدة التي تفك شـــفرة منشـــوراتي ولك وحدك أكتبها فلن يفهمها غيرك. لم تسعها الدنيا حين كتب لها:

_ليت الجميع يقرؤني كما تفعلين.

صـندوق بريدها أصـبح هاجسـا، تتفقده في كل وقت وحين، يرقص قلبها فرحا كلما راســلها، لكنها أبدا لم تجب، كانت تخاف، خوفها أكبر من رغبتها في التواصـل معه. لكنه لم ييأس ظل يشـجعها يشـير لها من بعيد أن لا تخـافي، أحس منها قبولا وارتياحا وقـدر خوفها ورهبتها، أحسـت ذلك من القصـيدة التي نشرها تلك الليلة وتوقفت أمامها عاجزة عن الرد:

راقبيني من بعيد
اصنعي من عشقي ثوبا
يجعل الشيبان صبيه من جديد
أورديني في خيوط
مثل خيط العنكبوت
علقيني في البيوت
زينة في يوم عيد
افعلي كل الأمور
ادخلي قلبي السرور
لكن أين تخبريني أن عشقي في الوريد؟
قرأت قصيدته وأعادتها مرارا واحتارت بم تجيبه وأخيرا كتبت:
لو كنت بحرا
كنت كل الغارقين
أو كنت فجرا
كنت ليل السهرانين
لو كنت غارا
كنت بيت العنكبوت

أو كنت قبرا
كنت أول من يموت

لكن ردها لم يعجبه لم تكن تلك الإجابة التي يريدها:
_مقطوعتي انتهت بسؤال، أريد جوابا لسؤالي سأساعدك وأبدأ أنا:

_ألاحظتني؟

_أراودك شك أنني أتتبعك؟

_أرأيت مني أنني قد أعشقك؟

_أتريد مني أن أجيب؟

_هل أن حبك بالوريد؟

_ولو أجبتك كم سؤال لي تجيب؟

ولم تستطع الإجابة، لكنه أعاد الكره مرة أخرى ها هو منشور جديد، مختلف ويدعو للدهشة، أحد التطبيقات التي يستخدمها رواد وسائل التواصل يسمح لك أن تراسل أي شخص وتخبره برأيك فيه دون أن يعرف من يراسله. ودخلت لتخبره رأيها لم تفكر في شيء، في الوقت الذي كان هو يدك كل الحصون ليصل إليها:

_كيف تطلب من أشخاص لا يعرفونك ولا تتعدى معرفتهم عنك ما تنشره هنا من أفكار أن يصارحوك أو يخبروك رأيهم في شخصك، قد يكون ذلك مقبولا في محيط عائلتك وأصدقاءك، لكن هنا أعتقد لا فائدة منه.

_لتطبيق سري ويمنح حرية في إبداء الرأي والنصيحة أنصحك أن تجربيه فليس هناك ما تخسرينه.

_لكن سريته قد تكون زائفه هل تقنعني أنك لن تعرفني إن راسلتك أعتقد لا فلكل شخص أسلوب مميز يكشفه.

_أبدا، من بين الذين راسلوني لم أستطع معرفة إلا صديق واحد، بسهولة يمكن تغيير اللغة والأسلوب، التجربة تستحق المحاولة.

هبت عليها رياح الفكر والحيرة تلقي بها يمنة ويسرى وهمت أن تفتح التطبيق وتجرب لكن منشورا آخر وصلها إشعاره فراحت تقرأه:

_"ما الذي يمنعك من الاتصال بالشخص الذي يشغل بالك الآن؟"

السؤال موجه لها، كانت تعرف ذلك وبدأت ترد وتناقش وتستمع له يقنعها مرة وتقنعه مره، امتد بهما الحديث ولم تنتبه للوقت، أشرق الصبح وهما يتحدثان، كيف مرت الساعات ولم تشعر بها، وبماذا تجيبه؟ الآن يريد وعدا بحديث على انفراد، لم تقبل وأيضا لم ترفض واعتبر هو هذا ميلا للقبول واستبشر خيرا ووعد بانتظارها.

جافاها النوم تلك الليلة، فعادت لتقرأ حوارهما معا كما اعتادت لكنها لم تجده!! تم حذف المنشور بالكامل وغرقت في بحر من الأسئلة ليس له نهاية؛ ولم تصل لإجابة واحدة تريحها.

لم تشعر كم من الساعات مرت بها وهي في تلك الجلسة لكنها انتبهت على رنين الهاتف نظرت له سريعا وكأنها تتوقع أن يكون هو من يهاتفها ليرد على تساؤلاتها وأتاها صوت صديقتها معاتبا:

_أين أنت؟ أضفتك للجروب لتقضي بعض الوقت فقط لا أن يشغلك عني لهذه الدرجة...

شردت منها للحظات، وعادت لتجدها تناديها بإلحاح:

_هدى.. أين أنت؟ هدى ... أتسمعينني؟!

_نعم.. نعم أنا معك.

_معي؟! أين؟! هههه روميو أخذك مني، هل ستخبرينني ماذا حدث؟

_بالطبع سأخبرك بكل شيء.

ظلت تستمع لها لم تحاول مقاطعتها حتى انتهت:

_داليا.. ما العمل الآن؟ كيف أتصرف معه؟

_أنا من سيتصرف سأحدثه أنا بصفتي أختك، هذا الأمر لابد وأن يقف عند هذا الحد.

في المساء اتصلت داليا لتخبرها ببدء محادثتها معه واتفقتا أن تطلعها على ما يدور بينها وبينه أولا بأول:

_أخبرها أنه ليس بينهما شيء وأنه لا يريد من هدى إلا أن يتحدثا لبعض الوقت ولو لمرة واحدة فقط.

_ليس بينكما شيء؟ وحواركما بالأمس والذي امتد حتى شروق الشمس، كنت أتابعه من البداية ورأيت كل شيء، لماذا حذفته؟!

_خُفت عليها، حديثنا لا يهم غيرنا لِيَطَّلِع عليه، أردت منها وعدا بأن نتحادث بعيدا عن المجموعة والتعليقات.

_يا أستاذي ما تطلبه صعب تحقيقه؛ فهي زوجه وأم ولها حياتها، وأنت... نحن لا نعرف عنك شيئا.

_أنا محمد خمسة وثلاثون عاما، متزوج ولي ابن وحيد، أعمل خارج مصر.

_ بعد ما قلته من المســـتحيل أن يتم ما تريد، يكفي ما حدث إلى الآن.

_ يا سيدتي لم يحدث شيء، ليس هناك بداية لنضع لها نهاية.

_ أخبرتك أنها زوجة وأم وتكبرك بسنوات، حتى الصداقة صعب أن تتم بينكما، لتكتفي باللقاء اليومي بينكما في المجموعة.

عند هذا الحد تَدَخَلتْ وأرسَلَتْ لداليا رغبتها في محادثته:

_ حســنا يا ســيدي، أنا ســأقنعها أن تحادثك، لكن عدني أن يكون ذلك لمرة واحدة.

_ حسنا أعدك أن أحادثها لمرة واحدة.

_ سأخبرها.. انتظر منها محادثة في صباح الغد.

سَقَطتْ في بئر من المشاعر والأفكار، عميق ومظلم تمد يدها تنادي عليه لينتشلها، يخرجها مما تعانيه من خوف وقلق، تخيلت عشرات السيناريوهات للشكل الذي سيكون عليه أول لقاء بينهما، لكنها لم تصل لرؤية واضحة تريحها.

انتصــف النهار.. أرســل لها مرتان وبرغم لهفتها لم تفتح لترد عليه، لطالما خافت من البدايات تفضـل ألا تبدأ حتى لا تنتهي، ولكن لابد لها من الرد الآن، التأخير ســيجهد أعصــابها أكثر إنها مرة واحدة؛ لتفعلها إذا وتنهي كل شيء بعدها.

اطمأنت قليلا، و لكن شيئا ما دفعها لدخول صفحته الشخصية، كانت تبحث عن التطبيق، ووجدته وراحت تفكر ما عساها تكتب فيه؟ وبدون أن تدري، بدأت في الكتابة له لتختبر نفسها، كانت مبهورة بالتطبيق منحها جرأة ورفع عنها الخجل، كتبت عنه عن رأيها فيه، وفي أسلوبه، وأشعاره، وأفكاره، وقراءتها له، لسمات شخصيته، كانت تتمتع بقدرة عالية على التحليل، تعرف أنه يفهم حياءها وخوفها من المواجهة لذلك فتح لها هذا الباب لتعبر عن نفسها بحرية واهما إياها أن ذلك سيتم في إطار من السرية، وأنه يتلقى يوميا عشرات الرسائل، أنى له أن يعرف أيها رسالتها، لكنها اكتشفت ما فعله، حمل التطبيق بصفحته وحدد شخصها فقط لرؤيته واستخدامه، ظهر ذلك عندما حاولت داليا الدخول، والكتابة له ولم تستطع، هو لها وفقط، تعامل بذكاء، راح يظهر رسائلها على صفحته، وطبعا مجهولة الهوية، ليطمئنها أنها وصلته ورآها.

كان يستدرجها واحدة، واحدة، رأى أن الرسائل تجهده فما من إشعار يخبره أن هناك رسالة ما قد وصلته، حتى وجدت إشعارا منه يصلها "أعجب محمد بتطبيقك" إذن تلك رسالة قد أرسلت إليها ويريد أن ينبهها لتراها، أثار هذا التصرف إعجابها رغم بساطته، وأصبحت تلك وسيلتهما لتنبيه بعضهما. تركها تسعد بأمان مؤقت حتى تعتاده ويصبح التواصل أمرا حتميا، وفي الوقت المحدد راسلها:

_"لن أكتب هنا مرة أخرى أريد تواصلا مباشرا، الرسائل تأخذ وقتا هنا والرد عليها يتأخر فتفقد رونقها"؛

وأسـقط في يدها ماذا تفعل؟ كانت مدفوعة بقوة لا تعرفها وكأنه قد سلب إرادتها.

ورَاسَلَتْهُ، تلك المرة رفع سقف مطالبه:

_الصـوت أكثر حرية وتعبيرا عن المقصـد، ويكشـف أبعادا أخرى في شخصية من نتعامل معهم، امنحيني تلك الفرصة، لن أخذلك ولن تندمي.

ووافقت، أَجَّلَ عمله يوما كاملا ليحادثها، كان حديثا شـيقا ومطولا، فيه الصورة التي كونتها له وانطباعها عنه، وصَارَحَتْه، كان مندهشا ومعجبا بتفهمها له، تحادثا في الشـــعر والأدب والفن وفي الحياة وانتهى بسؤال:

_ما تقييمك لتلك المحادثة؟ هل وافقت توقعاتك أم لا؟

_نعم توقعتها كذلك، أنت تريد كسـب ثقتي لتكرر التجربة وتصـل لمبتغاك.

_لا.. لا أريد شـــيئا إلا أن نتحدث وفقط. عديني أن نتحدث مرة أخرى وسأثبت لك.

_سنرى لا تسبق الأحداث.

هدى.. أنا لا أعرف عنك شيئا، ولا يهمني إلا ما رأيت منك وأسرني لا أســتطيع الفكاك منك، حاولت كثيرا وفشـــلت، راحتي معك أنت، أعرف أن هذا ربما يزعجك لكن هو إحساسي لن أنكره ولا يعني ذلك مطالبتي لك بشيء.

_وهو كذلك، أنا أقدر شـــعورك وأحترمه، ربما يأتي وقت أنســـب نتحدث فيه.

وتواعدا على اللقاء مجددا في نفس موعد كل مســاء، وجاء المســاء ولم يأت؛ استبد بها القلق ما أخرى؟ وحدثتها نفسها:

_لقد وعدني، من المؤكد أن شـــيئا ما حدث، يظهر متصـــلا أمامي، أتراه يحدث امرأة أخرى؟ أراسل داليا، وأحكي لها، لعل لديها تفسيرا.

لم ترد داليا فورا كعادتها تأخرت قليلا أو ربما قلقها وانتظارها أوهماها بذلك، ظلت تكتب وتكتب قالت كل شيء، وأتاها الرد:

_هدى ...أنا معك.

_ معي؟ أنت مشغولة، كنت أجدك حتى قبل أن أراسلك.

_طمئني كنت أفعل ما يريحك، وأضع كل الأمور في نصابها.

_ما ...ماذا تقصدين؟

_ أحادث محمدا الآن... أَرْسَلْتُ له في الصباح، ويرد علي الآن.

_ كيف؟ أنا لا أفهم ماذا تقصدين؟

_ أنت أختي حبيبتي، لا أهنأ أبدا وأنت قلقة متعبة، راســـلته لكن باسم آخر، وصفة أخرى، اسمي الجديد "بسمه" لأعرف من هو، وكيف يتصرف؟ لأكشفه لك، لأثبت أنه لا حب يأتي بهذا الشكل، وأنه رجل وكل الرجال ســـواء، يلبون أي دعوة دون أن يرف لهم جفن.

وبمنتهى الثبات أجابت:

_يعني هذا أنه أجاب دعوتك؟ أليس كذلك، وما الذي يعنيني أجاب أم لم يُجِبْ؟

_هدى فعلت ذلك لخوفي عليكِ لأعرف ماذا ينوي، أنا متأكدة أنكِ معجبة به، لكنه شعور لا يتعدى الإعجاب، ولا ينبغي له أن يصل لأكثر من هذا.

وَافَقتْهَا...استراحت للفكرة، كانت دهشتها بالغة وإعجابها أيضا، رغم ما ظهر أنه خداعا، إلا أنه كان بارعا فيه وذكيا، كنا نشاهده ونعبث به، نحادثه في نفس الوقت لنشتته، لكنه كان يوقعنا في الحيرة كل مرة، كيف يتمتع بكل هذا الثبات؟! كيف يركز في أكثر من فعل وأكثر من شعور جميعهم مختلفين وفي نفس اللحظة؟

فهو مع داليا الشخص المرح الصاخب، ومع هدى المتعقل المثقف، وفي المجموعة قيادي مؤثر، صاحب فكر ورأي، يظهر بالشخصيات الثلاثة، لكنه يترك المجموعة، يعتذر من "بسمه " ويتفرغ لهدى، كان حديثا من نوع خاص، حرصت أن تجعله جادا ومحافظا، وحنونا يحمل الود، والحب في طياته بلا تصريح، أما هو فلم يفتر إحساسه بها لحظة، يبثها حبه يناديها بأعذب الأسماء، لم يكن يغريها الغزل الصريح، ربما لشكها في صدقه فكثيرا ما أقسم أنها هي وحدها لا أحد سواها، في الوقت الذي يحادث بسمه ليقضي معها وقتا لطيفا، كان يحادثها فيما تحب ليصل بها لما يحب، حديثا خاصا جدا يسمح لهما بالقرب للدرجة التي تجعلهما ينزعان رداء الحياء والخجل ويتحررا من كل القيود، كانت تجيد المراوغة وكان هو يجيد الانسحاب كما يجيد التسلل لقلبها وعقلها.

واتخذت قرارها؛ توقفت عن الكتابة له والرد عليه؛ أثار هذا تساؤلاته ودهشته فلم يحدث شيئا في رأيه يجعلها تبتعد بهذا الشكل؛ أخرجه هذا عن صوابه فراحت رسائله تتوالى، تركته هكذا يوما وليله ثم قررت الرد:

_سامحني، أردت التفكير بهدوء فيما فعلت وما سأفعله غدا.

_كنت أحتاج لكلمة واحدة، وسأقدر ذلك، أنا بخير الآن ما دمت أتيت، أحتاج للحديث معك وسماع صوتك، متى تتصلين بي.

_أخبرتك أنك صديق أعتز بصداقته، لنبق شريكي رأي وفكر يقدر أحدنا الآخر.

_ثم ماذا بعد، أترفضين قلبي؟

_أنا غير مرتاحة للخروج عن هذا الإطار.

_لن أجبرك، هذا حقك، لكن سأظل أحبك، ولن تمنعيني هل تريدين ألا أراسلك هنا مرة أخرى؟

_نعم.

هذه إرادتك؟ ستكونين سعيدة في البعد عني؟ أنا لا أريد سوى سعادتك. سأسافر في إجازة للقاهرة لمدة شهر، لن أتواجد خلالها وصيتي لك أرجوك إعتني بهدى حبيبتي.

_هل تسمح بمكالمة أخيرة قبل أن تغادر؟

_أجل يمكنك الاتصال في أي وقت.

وغادرت هدى ولكن ظلت تتابع مع "بسـمة" كانت غيرتها تشـتعل؛ كلما أخبرتها بما يدور بينهما من أحاديث؛ وكيف كان يغني ويضـحك ويسـخر، ويسـتعد للعودة لأهله؟ واتخذت من فرصـة السـفر سـببا لتُجري الاتصـــال الذي وعدته به لتودعه وعادا من جديد، وتغيرت عاداته مع بســـمه وقَلّتْ محادثاتهما، ولكن داليا زادت مخاوفها، وتدخلت لتنهي القصة بصفتها أخت هدى:

_أنت وعدت بأنها مرة واحدة، وخلفت وعدك؛ هدى لن تحادثك ولن ترد مرة أخرى؛ وإذا حدث أرجوك لا تجيبها لمصحتكما.

_لا أستطيع؛ سأمتنع عن الكتابة لها بمعجزة، لو راسلتني سأرد.

وأصبح المنع والصد دافعا للتمسك أكثر، أخذا يتبادلان الغزل أمام الجميع، وتدخلت داليا مرة أخرى، وبدون الرجوع لهدى:

_هل جننت؟ كيف تسمح بهذا الحوار بينكما؟ ماذا سيفهم أعضاء المجموعة؟

_ سيفهمون أني أحبها.

_ لكن زوجتك في انتظارك، هي أحق بقلبك.

_ قلبي ليس ملكي، لا أستطيع السيطرة على مشاعري.

_ أنت تسيء لها، حتى لو كانت مجهولة للجميع هنا.

وحادثته بسـمة أخبرها أنه غادر المجموعة ويسـتعد للسـفر خلال أيام.

وجنت هدى فقد غادر المجموعة وألغى تطبيق المصـارحة لم يعد أمامها إلا الخاص، هل قصـد ذلك؟ هل اختار البعد لمصـلحتهما؟ هل هذا إجراء كحزم الحقائب حتى يعود خالصـا لأهله؟ هل أحبني حقا؟ هل هو صـادق؟ إجابة هذا السـؤال فيها شـفائي؟ إما صـادق ويسـتحق وقتي، ومشـاعري؛ فأبتعد ليظل نورا بقلبي، وإما مخادع ووقتها سأقص جذور هواه من روحي، ولن أندم.

وعلى الخاص كتبت مجددا.... محمد.....

تمت بحمد الله